الخصائص الكلية

لحضارة الإسلام

د. عبد الحميد غانم

الخصائص الكلية لحضارة الإسلام

توطئة

- الحضارة الكاملة مشروع إسلامي
- الحضارة الكاملة صناعة إسلامية
- الإسلام هو الكمال الحضاري

توطئة

تحاول هذه الدراسة أن تشرح كيف يمكن أن تكون **حضارة الإسلام** تفاعلاً موضوعياً بين **ثلاثية: الزمان، والمكان، والعقلية الاجتماعية للأمة.**

وكيف يبدو **الزمان** محايداً؛ لأنه بطبيعته لا ينتظر أحداً، بقدر ما يبدو **المكان** غير محايد؛ لأن خصائصه عادةً ما تؤثر في أهله، فيما تبدو **العقلية الاجتماعية** للأمة المسلمة ثمرة موضوعية للفعل المقصود بين الإنسان والمكان و الزمان في صور من **التراكم المعرفي والمادي والمعنوي** الذي تصنعه العلاقة السَّوِيَّة بين معارف الوحي الخاتم ، وجهود العقل المسلم لصناعة حضارة كاملة، تولد **مرتين:**

*** مرة حين تَصِح أفكار العقل في رعاية الهدايات الربانية.**

*** والأخرى حين تُسَجَّل هذه الهدايات والأفكار في سِجِل الأنفس ، فتستثمر بها الزمان، وتغير بها المكان، وتوجه التاريخ نحو الصواب.**

الخصائص الكلية

- الحضارة الكاملة مشروع إسلامي
- الحضارة الكاملة صناعة إسلامية
- الإسلام هو الكمال الحضاري

الحضارة الكاملة مشروع إسلامي

حضارة الإسلام حضارة كاملة ذات معمار مخصوص (1) يقوم على نوعٍ جديد من الإنسان، جرى ترشيد وعيه وتسديد سعيه وَفْق معارف الوحي وهُداه، فتغير به كل شيء في الزمان والمكان طِوال عصري الرسالة والرشد، وقرون الخيرية، وفترات العافية الإيمانية.

وإذا كانت الحضارات ثمرات للتفاعل الموضوعي بين ثلاثية: **الزمان، والمكان، والعقلية الاجتماعية**، فإن هذه **العقلية الاجتماعية** نِتاج حتمي للعلاقة الصحيحة بين **الثوابت والمتغيرات** في حياة كل أمة.

ومن خلال ذلك التفاعل تنشأ الحضارات في صور من التراكم المعرفي والمادي والمعنوي ، الذي يأتي عَبْر **إضافات** يتولاها النُّخَب، **ومنقولات** مُنْتَقاة من الآخَر، **وتراكيب** تاريخية متولدة عنهما (2)

وإذا كانت **الحضارة عمارة من التفوق البشري في استثمار الأسباب والوِجْدان والأفكار، فإن الدين هو المحرك الفاعل فيها دفعاً وتأصيلاً وامتداداً، وكان الإسلام هو النظام المهيأ لصناعة مشروع حضاري كامل**

---

(1) الخصوص هو تَفَـوُّد الشيء عن غيره، وتَعَيُّنُه بأوصافه. أرجو مراجعة: التعريفات الجُرْجاني 133و310، المعجم الفلسفي د.جميل صليبا 1/ 514

(2) مجلة المسلم المعاصر عدد [9] 39 وبعدها بتصرف

ولسوف يشهد التاريخ **أنه** لم يكن في جزيرة العرب قبل القرآن سوى قبائل بدوية تتابد الصحراء، وترتحل هنا وهناك، ويضيع وقتها هباءً، **وأن** عناصر التَّحَضُّر الثلاث: **الإنسان والوقت والأرض** كانت راكدة بلا دور، ومكدسة بلا تجديد؛ لأن **الدين** قد غاب.

حتى إذا أطَلَّ الإسلام تجددت الفِطْرة، وأشرقت الروح، وتبدلت القابِلِية للحياة، ووثبت حضارة ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ** ﴾ العلق 1-5، لتثير الدنيا وتدهشها ، ولا تتوقف حتى تفتح في ثمانية عقود ما احْتَلَّه الرومان في ثمانية قرون، و تُغَيِّر وجه التاريخ في الإنسان قبل المكان ، ثم تسود لعشرة قرون قبل أن تتراخى في الاستمساك بشروط الوعي والسعي و التجديد والنهوض **شيئاً فشيئاً**، فتسمح لرياح التراجع والأُفول بالهبوب، وتتنحى عن رِيادة الحياة إلى الآن (1)

---

(1) شروط النهضة مالك بن نبي 76 وبعدها بتصرف

) الحضارة الكاملة صناعة إسلامية

نجح الإسلام في صياغة حضارة مخصوصة، جاءت وَفْق منظومة مقصودة من **العقيدة** التامة **والمعارف** الصحيحة التي هدت القلوب، ورتَّبت العقول، وصانت الفِطَر، وحدَّدت المقاصد، ورشَّدت الغرائز، وهذَّبت النفوس ، ووجَّهت الجوارح ، وجدَّدت البشر، وشيَّدت السلوك السَّوِي، و ارتقت بالروح والبدن ، فسادت **بقوة الفعل**؛ لأنها وجدت مَنْ يرعاها، ثم هي الآن باقية **بقوة القدرة** تنتظر مَنْ يُلَبِّيها.

ولقد تمكن **المسلمون** من صناعة تلك الحضارة عندما توفرت الفرصة لكل مُكَلَّف في أن يعرف **من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، ولماذا يحيا وكيف**.

فعرف المسلم **قيمته** في الحياة، واستدل على **موقعه** منها، وأدى **دوره** فيها حين أدرك أن واجب أمته يقع عند **رُتْبَة الشهادة على الآخر بصحيح الاعتقاد وسديد القول وصالح العمل** ، امتثالاً لقول الله تعالى ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾البقرة 143، فالشهداء هنا هم هؤلاء **العقلاء العاملون بما يؤمنون ويقولون** ، فهم حُجَّة الله على الناس بالقول مع العمل كما كان رسول الله ﷺ حجة عليهم بالبلاغ والعمل.

ومن هنا التزم هؤلاء **الشهداء العقلاء بشروط الشهادة** التي توجب: الوعي بالإسلام أي **الوعي بالواجب**، والوعي بأحوال الزمان والمكان والناس أي **الوعي بالواقع**، والوعي بطرق تنزيل الإسلام في الحياة تنزيلاً يجدد الدين حين يُصلح الحياة به أي **الوعي بطُرُق تطبيق الواجب في الواقع**.

وهو ذات النظام الذي إذا تحقق وَفْق **شروط الخيرية الإلهية، وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله**، فإنه لابد أن يتميز عن أدوار التاريخ وثمرات الحضارة امتثالاً لقول الله تعالى ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ آل عمران 110 (1)

---

(1) أرجو مراجعة: تفسير الثَّوْرِي 1/ 51، دقائق التفسير ابن تيمية 2/ 65، تفسير الطَّبَرِي 2/ 6وبعدها، 5/ 92، 7/ 126، 24/ 33، أحكام القرآن الجَصّاص 1/ 109، 2/ 313، 5/ 90، تفسير القُرْطُبِي 2/ 154وبعدها، تفسير ابن كثير 1/ 191وبعدها، 3/ 238، تفسير السَّعْدِي 1/ 70و242و 203و447و667، تفسير الشَّنْقِيطِي 1/ 46، 5/ 303 وبعدها، 6/ 367وبعدها، 8/ 479

ولذلك تجلَّت المهمة الأم للوحي في هداية الإنسان ليدرك جلال أمانة الخلافة عن الله في الحياة قبل أن يتعرف على طبيعة عصره، ومكانه منه، ومهامه فيه وَفْق شروط جديدة خطَّها الوحي ذاته.

من هنا أطلق الإسلام في الإنسان طاقات الإبداع ليصنع الحياة من خلال إدراكه **لقيمته** التي قررها الوحي له، واستدلاله على **موقعه** الذي دلته معارف الوحي عليه، واكتشافه **لدوره** الذي هدته مقاصد الوحي إليه، **فصح فِعله حين صح فِكره**.

وكان نقاء هذه الهداية في الوعي، وإبداع الامتثال لها في السعي هو **الصانع** الأول للمسلم الجديد، و**الباعث** الأهم على ترقية صفات نفسه الجديدة وصيانتها، وتوجيه حواسها نحو اكتشاف المقاصد من منظومة حقائق الكون وعلاقاته وقوانينه، وضَبْط هذه المنظومة بمعيار الحق الذي جاء به الوحي ، وتطويع أدوات العلم ومكامِن القوة ومباعِث الهمة لتأسيس حضارة متميزة ذات عقيدة كاملة وتطبيق فريد.

بقدر ما كان غَبَش الوعي بهذه الهداية المعصومة، ورَخَاوَة الامتثال الصحيح لها هما المُؤْذِن بتراجع حضارة الإسلام عن أداء دورها، ثم انسحابها من كل مواقع الرِّيادة، وهو ما يحدث لحضارة المسلمين دون

غيرهم من أهل الحضارات الوضعية.

ولعل السر في ذلك التفاوت هو نوع الفارق بين طبيعة الهداية الإسلامية المعصومة بالوحي، وطبائع الأفكار الوضعية المحكومة بالهوى والنقص:

فالأولى كُلٌّ لا يقبل تبعيض المرجعية في التناول، ولا يهمل المقاصد الشرعية في التعامل مع النوازل.

وأما الثانية فإنها **مرهونة** بالنقص البشري في التناوُل، والعجز العقلي عن الإحاطة، والتعرض لعدوى المُواءمات، ومن ثَمَّ الحاجة إلى التبديل كل حين (1)

---

(1) الإنسان حين يكون كَلًّا جودت سعيد 20 وبعدها بتصرف

مجلة الفيصل عدد [106] 14 وبعدها بتصرف

) الإسلام هو الكمال الحضاري

يطلق الكمال على حصول تمام الحال في الذات والصفات (1) مما يرتقي به وجود الشيء وتتحقق طبيعته (2)

ويُراد بالكمال في الدين الجمع بين القراءتين : **قراءة الوحي المسطور** قرآناً وسُنَّة، **وقراءة الكون المنظور** لصناعة **العمران** باقتران: **علوم التيسير** في قول الله ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ القمر17، **بعلوم التسخير** في قوله ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ الجاثية 13 (3)

وتدلنا طبائع الحوادث على **أن الحضارة الكاملة تطلق على وِجْدان كل شيء كمالاته اللآئقة به** (4) **وأن الحضارة الكاملة** لا يمكن أن تقوم بغير **الدين، وأن هذه الحضارة الكاملة تولد مرتين:**

---

(1) لسان العرب 11/ 598، القاموس المحيط 1362، مُختار الصِّحاح 1/ 241

(2) التعريفات 240، التعاريف المُناوي 1/ 609، المعجم الفلسفي 2/ 243

(3) أرجو مراجعة: إبراهيم 32-33، النحل 12، الحج 65، لقمان 20، الجاثية 12، تفسير مُقاتِل 3/ 212، تفسير الطبري 22/ 65و584، تفسير ابن عطية 1/ 38، تفسير ابن عجيبة 7/ 376، تفسير البِقاعي 5/ 628، 7/ 95و372، 8/ 206، تفسير الثَّعالِبي 1/ 9، تفسير الشِّرْبيني 3/ 153، 4/ 99، تفسير حَقِّي 10/ 182

(4) النَّجاة ابن سِينا 373

*** مرة حين تَصِح الأفكار في رعاية الهدايات الربانية.**

*** والأخرى حين تُسَجَّل هذه الهدايات والأفكار في سِجِل الأنفس البشرية وعياً وسعياً، فتدخل بها حركة التاريخ وتقوده (1)**

ولذا يطلق **الفِكْر** لغةً على إعمال النظر في الشيء (2) ويطلق **الفكر** اصطلاحاً على ترتيب أمور معلومة للوصول إلى مجهول (3)

ولا تتم حقيقة الفكر إلا بعمل العقل في فهم معارف الوحي والكون، ثم عمل الجوارح لتنزيل تلك المعارف على العصر، تنزيلاً يُصْلِح العصر حين يُجَدِّد الدين فيه.

ولقد صَحَّت الفكرة الإسلامية في **مكة** حين انفعل النَّفَر الأول لعِصْمة الهدايات الربانية، فدخلت نفوساً عذراء، لم تَتَلَبَّس يوماً بغُزاة،

---

(1) روح الحضارة الإسلامية محمد الطاهر عاشور 72وبعدهابتصرف

(2) لسان العرب 5/ 65، القاموس المحيط 588، المصباح المنير 656

(3) تفسير الطبري 8/ 103، تفسير السعدي 1/ 375،
تفسير الشنقيطي 6/ 168، شرح سنن ابن ماجة 1/ 96،
فيض القدير 2/ 9و59-60، 4/ 367، التعريفات الجرجاني 217،
المعجم الفلسفي 2/ 154وبعدها.

ولم تنشأ فيها من قبلُ ثقافة وافدة، ولم تخالطها ديانة سابقة، فلَبَّت داعي الله تعالى، وامتثلت حُكْمه، ولم تَدَّخِر نفيساً في الاتِّباع والنضال ، بقدر ما حمل ذلك النَّفَر من سِمات صيانة العِرْض والشرف **ـ التي هي أول أُسس التَّحَمُّل ـ** ما جعله أهلاً لنيل الرِّيادة في استقبال هذا الدين واتِّباعه، وحَمْله للناس بالممارسة والكلمة معاً.

وإذا كانت أي حضارة دينية المنشأ هي ذلك المعتقد الفكري الذي تعتنقه أمة ما عن يقين، وتحمله إلى الآخَر، وتضحي لأجله في ميادين الاتِّباع قولاً وعملاً، فإن أبرز سِمات الإسلام أنه الدين الخاتم الناسخ الذي يتناول الباطن والظاهر، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة.

فالدنيا طريقه إلى الآخرة، والتفكير فيه فريضة شرعية، و الدعوة إليه حركة جهادية، و ضوابطه عِمارة أخلاقية، وحضارته دليل تَفَرُّده لأنها الحضارة المُمَيَّزة بصدق إيمان أهله وصحة التزامهم بشروطه.

ومن هنا تصبح **العقيدة موجهاً** للحياة والإنسان، **والتفكير برهانا** على صحة الإيمان، **والدين أكمل حضارة** يقدر على صنعها إنسان (1)

ولذلك فإن هذا الإسلام يدعو كل مكلَّف إلى عَقْدٍ اجتماعي من نوعٍ

---

(1) شروط النهضة مالك بن نبي 81 وبعدها بتصرف

معصوم يدله على قيمته، ويرتب له موقعه، ويهديه إلى دوره، ويضمن له حقوقه، ويصله بأمته، ويُشعره بأن منظومة الحقائق في متناول بحثه، ويجعل معيار الحق ظاهراً في هدايات الوحي بين يديه، ويطمئنه إلى رحمة ربه ومعونته، ويرى الحضارة أثراً لذلك النظام ، ومن ثَمَّ كانت حضارته حضارة بغير نظير (1)

ومن هنا صنعت هدايات الإسلام أمةً فتحت العالم في نصف قرن، ثم مَدَّت بركاتها من قلب بلاد **الصين** إلى **الأندلس** فأضاءت أنوارها الحواضر في **مكة، والمدينة، ودمشق، وبغداد، وقرطبة، والقاهرة؛** لأن وعيها وسعيها يقوم على منظومة تامة من **الإيمان الثابت الذي بلغ حد اليقين الراسخ، فاطمأنت له النفس، وامتثلت له الجوارح، وسكن عنده القلب، ولم يخالطه شك ولا ريب** في **أن** معارف الوحي وهداياته معمار معصوم، **وأن** قانون العناية يَكْتَنِف الحياة بحالها، **وأن** السُّنَن الإلهية قوانين مهيأة لمن يستثمرها، **وأن** الكون مُسَخَّر للإنسان، **وأن** ذلك التسخير مرهون بسلامة أسبابه، **وأن** الأسباب أمَارات على نتائجها وليست صانعةً لها، **وأن** الإنسان مسؤول عن وعيه وسعيه، **وأن** سلامة النِّيَّات تُحَوِّل العادات الصحيحة إلى عبادات، **وأن** صحة الوعي

---

(1) روح الحضارة الإسلامية محمد الطاهر عاشور 20 وبعدها بتصرف

والسعي لا تتم إلا بتربية الإنسان على **منظومة متكاملة من** التحرِّي في الاعتقاد، وتحرير القول، والإتقان في العمل، والإيمان بتكامل العقل والنقل على شروط النقل، وفهم حقائق الكون في إطار ذلك التكامل المُحْكَم بحيث يبقى جَلِيّاً في ال عقل المسلم **أن الوجود** هو الساحة الحضارية لحركة الإنسان ، **وأن الإنسان** هو الفعالية الحضارية الجديدة، **وأن العمران** هو الثمرة الحضارية لهذا وذاك (1)

وهكذا أرست حضارة الإسلام مفاهيم **الفقه الحضاري** الجديد فمكَّنَت المدنيَّة الإسلامية من دوام الانتشار **وحدث التواصل الحي**: **بين** هدايات الإسلام وسُنَن الفِطْرة، **وبين** الأحكام الشرعية وسُنَن الله الكونية، **وبين** خصائص الحضارة وأمهات القِيَم، **وبين** قواطع العقل ومعارف الوحي، **وبين** سُمُو المُثُل وضوابط السلوك.

فتنوَّعت في الحياة سلامة التكيف مع الأعراف السَّوِيَّة، **وصحة** سياسة جديد الواقعات وَفْق هدايات الوحي ومقاصده، **ودقة** النظر في المحصول الحضاري للأمم الأخرى بقصد الانتفاع بخيره، و إصلاح فساده، وتطوير الصالح منه.

---

(1) دور العلماء المسلمين في تطوير العلوم إبراهيم القباني 6وبعدها بتصرف

وهنا فقط يتحول مفهوم الكمال الذي تتميز به حضارة الإسلام من **قوة القدرة** الكامنة فيه إلى **قوة الفعل** المعبرة عنه (1)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) الإسلام وأزمة الحضارة عمر بهاء الأميري 14 وبعدها بتصرف

الإسلام في المعترك الحضاري عمر بهاء الأميري 32 وبعدها بتصرف

د.عبد الحميد محمود غانم

Agh_1952@yahoo.com

Ghanem1952@gmail.com

****